السُّلَمُ الخشبي
Wooden ladder

الخيرُ يَبقَى وإنْ طالتْ غوائِلُــه فِي نُصْــرَةِ الفَرْدِ إِحْيَاءٌ لِأَكْوَانِ
فَافزَعْ إلى الخَيْرِ لا تَخْشَ عَواقِبَهُ مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لمْ يُرْمَ بِعُدْوَانِ

نبيل شتا

السُّلَمُ الخَشَبِي

نظر إلى الأرض فدارت عيناه .. أدركتُ بأنه قد توقف لا هو يستطيع أن يصعد أو أن يهبط، لا محالة سيسقط ويموت فاهتز قلبه بين ضلوعه خوفًا ووجلًا، كما ارتجفت قدماه، كان طفلاً في عقده الأوسط، رأيته يصعد السلم الخشبي سريعًا مهمومًا مضطربًا خائفًا، رأيته في اللحظات الأولى ماذا يفعل، فتسمرت عيناي عليه أرصد تحركاته بكل دقة وإمعان، كنت على عجل من أمري، أنتظر الباص القادم ليقلني إلى عملي، فالساعة تشير في يدي التاسعة إلا الربع صباحًا، وكان ميعادي الساعة الثامنة.

هالني تأرجح السلم الذي ركب عليه هذا الطفل يُمنة ويُسرة، فقد كادت قدماه المدببتان تنزلقان ويسقط على الأرض، فتهشم رأسه، كان جسمي وقتذاك يميل يمينًا ويسارًا مع ميل السلم الخشبي، أخذتُ أفكرُ ماذا جرى لهذا الهر ليتسلق هذا السلم هربًا، فجأة .. توقف على السلمة الوسط، وزاغت عيناه، كاد أن يلتصق بعمودي السلم.

قَدِم الباص، ثم توقف، فأطلق صفارة، وتابع سيره، كانت عيناي منغرستان في هذا الطفل تتابع رجفات قدميه وتحركاته وتحركات السلم، فنظرتُ إلى الباص وقد غاب عن ناظري، وسقطتْ عيناي على ساعة يدي، إنها تشير إلى العاشرة إلا الربع .. يا إلهي لكم أنا نزق..! [1] لا أهتم بالمواعيد .

وطار نظري حيث الهر جاثم على السلم بالوسط، فترجلتُ إليه، وأمسكتُ رجل السلم لأثبته كي اساعده على الاستقرار، وأخذتني الشفقة عليه، فقلت له :

ماذا بك .. ؟!

فبكى والدموع كانت تتساقط من عينيه، قائلاً:

عمو.. انقذني .. !!

. كيف وأنت وسط السُّلم ؟ اصعد، وسوف أمسك لك السُّلم جيدًا ..!

. لا أستطيع .

. إذن .. انزلْ .

. لا أستطيع .

فما كان مني إلا أن ألقيتُ حقيبتي، وصعدتُ درجات السلم الأولى ثم الثانية فانزلقتْ قدمي اليمنى وعدلتها، فانزلقتْ قدمي اليسرى .. وأصبحتْ تُؤلمني ألمًا شديدًا، وكان السلم يتأرجح، خفتُ على الطفل من السقوط وعلى نفسي بالطبع، نزلتُ .. متسائلاً:

. ماذا أصنع لهذا الجني الذي صعد كل هذه الدرجات، فإنها تزيد عن عشر سلمات، فإنني رجل كبير لم أراهن بعمري من أجله، لابد إنه اقترف ذنبًا، جعله يهرب بهذه الطريقة، يسقط .. يقع .. يموت .. فما ذنبي إذن .. حملتُ حقيبتي بعدما نفضتُ ملابسي مما علق بها من أتربة، ورجعتُ القهقري .. صرخ الولد باكيًا مستغيثًا:

. عمو.. لا تتركني ..

تسمرتْ قدماي كما تسمرت عيناي من قبل عليه .. رفعتُ رأسي إلى السماء .. وقلت له:

. لماذا صعدت يا هر..

رد قائلاً:

لأن أمي ستضربني .. !

. لابد إنك فعلت شيئًا أغضبها.

. لا بل هي ...

. كيف .. ؟!

. طلبت منها طعامًا، فإنني جائعٌ فلم تطعمني !

.معي سندوتش، انزل وخذه.

حاول النزول سلمة .. سلمتين .. وتنزلق إحدى قدميه وتعلق الأخرى، فيتأرجح السلم، وانقلب فصارتْ رجلاه للأعلى معلقة ورأسه إلى الأسفل .

سرتْ حينئذ رعشة في جسمي؛ فصرختُ بأعلى صوتي مستغيثًا مشفقًا على نهاية هذا الطفل المسكين .. فما كان مني إلا أن أمسكتُ السلمَ، ووقفتُ دون أن اتحرك، مَرَّعليَّ رجلٌ طاعنٌ في السن يتكئ على عصا غليظة، طلبتُ مستنجدًا به وأشرتُ إليه، فما كان منه إلا أن رفع حاجبيه المغضنتين[٢] إلى الطفل، ودحرجَ نظرة إليَّ وتبسمَ وسارَ دون توقفٍ ..

مَرَّعليَّ صبية صغار فرأوا ما أنا فيه، والطفل المعلق؛ فضحكوا .. وهللوا .. وصرتُ أبكي في نفسي خوفًا على الطفل، وألمًا من تصميد[٣] يدي، وضياع عملي ..

كلمتُ الطفل، فلم يردْ عليّ جوابًا ..

قلتُ لافائدة من مواصلة الوقوف وإمساك السلم، فقد توفي الولدُ لا محالة ..

مَرَّتْ سيارة كان صوتُها عَاليًا، فالتفتُ إليها، فجأة وسقط السلم على الأرضِ ، ووقفَ الولدُ يسألني :

.أين السندوتش يا عمو .. ؟!

وقفتُ مبهوتاً [٤]، فقد دارت رأسي وزاغ [٥] بصري، وتمادتْ الأرضُ من تحت قدمي،.. لا أدري ما أنا فيه، أطفال يضحكون، ويهللون .. ورجال ونساء من حولي يقتظ بهم المكان، وسيارة مفتوحة الأبواب الأربعة .. تُقفلُ، وتفرُ مسرعةً .. !

هرولتْ بحثًا عن حقيبتي لأحضر السندوتش، درتُ في كل مكان .. لم أجدْ حقيبتي، ولا السندوتش .. ! رجعتُ القهقري، وجلستُ القُرفصاء، مُمْسكًا بذقني .. وعيناي مُثبتتان إلى الأرض .. وعقلي شاردٌ

أفكرُ في الباص الذي تركني، وعملي الذي ضاع، والسندوتش .. فإني جائعٌ الآن .. !!

(١). النَّزَقُ : الخِفَّةُ والطيش في كلِّ أمر.
(٢). المغضنتين :أي المُجَعّدتين ، والمفرد:: مُغَضَّنٌ ، وهو المُجَعَّد .
(٣). تصميد : دائِم
(٤). مبهوتًا : فتح العين وتحديد النظر، كأنه مَبْهُوتٌ .
(٥). وزاغ : بمعنى الميل .